

## عن الذرائع الدينية والتاريخية للصهيونية

فييلة تتعاهد مع سيد ما تعده بالطاعة مقابل حمايته . ويختتم هذا الميثاق - كما ذكر الكتاب المقدس - بذبح حيوانات التضحية . ويعد الختان رمزاً لهذا العهد ( سفر التكوين ، الاصحاح السابع عشر الآية ١٠ ) .

ويفسر العهد بهذه الطريقة يعني التمسك فحسب بالحيوانات الخارجية الحرة البالية لنصوص الكتاب المقدس للتمييز بين المختارين وغير المختارين .

اما ما هو أساس في نراث ابراهيم ، وتراث انبياء اسرائيل العظام ، ثم العهد الجديد ، ثم القرآن ، فهو بالتحديد التصور العالمي الذي يخطى التمييز بين المختارين والمستبعدين ، الامر الذي لا يمكن بدون - كما لاحظ جورج فريدمان عالم الاجتماع اليهودي الكبير عند عودته من اسرائيل - القيام بتجديد ديني لاغوتي في اسرائيل . فهو يقول : « ان الدين ينتزع من جذوره العية ، ويعزل داخل قومية متكاملة » .

ان هذا « التصلب من جانب المؤسسة الدينية » يترك آثارا سياسية خطيرة ، فهو يؤدي الى اضعاف شرعية دينية على النزعة القومية . ولقد كانت حجج كهذه هي التي يبرر بها المسيحيون الصفاء للسامية ، اذ يتهمون اليهود بأنهم مسؤولون عن موت المسيح .

وذلك في حين تتخطى التوراة والانبياء هذه النزعة الطائفية ، اذ يتحدث سفر التثنية ( الاصحاح العاشر ، الآية ١٦ ) والنبي ارميا ( الاصحاح الرابع ، الآية الرابعة ) عن « ختان القلب » أي عن التحول الداخلي للانسان بحلول الله فيه وليس عن مجرد الطقس الشكلي .

ان المسيحية باعلان « العهد الجديد » اي العلاقة الشخصية بين كل واحد وبين الرب ، تتخطى النزعة الطقوسية . ويقول بولس الرسول - وهو يهودي بالولد - بوضوح ( رسالة الى اهل غلاطية - الاصحاح الخامس ، الآية السادسة ) : « لانه في المسيح يسوع لا الختان ينعف شيئاً ولا الفرلة بل الايمان العامل بالمحبة . ليس الطقس وانما الاتحاد بالله هو الذي يطهر القلوب » . ويضيف بولس الرسول ( رسالة الى اهل غلاطية - الاصحاح الثالث ، الآية الثامنة ) : « والكتاب اذ سبق فرأى ان الله بالايمان يبرر الامم سبق فبشر ابراهيم ان فيك تبارك جميع الامم » ( تكوين - الاصحاح الثاني عشر ، الآية الثالثة ) .

وباسم هذه العالمة التي تستبعد كل عنصرية يستخلص بولس الرسول ( رسالة الى اهل غلاطية - الاصحاح الثالث ، الآية ٢٨ ) : ليس يهودي ولا يوناني . ليس عبد ولا حر .

لندكر اولاً الاهداف الاساسية للصهيونية كما عبر عنها أكثر ممثلها بروزا .

لقد أعلن بن غوريون في عام ١٩٦٣ ما أسماه « مملكة اسرائيل الثالثة » . والمملكة الاولى هي مملكة داود ، أما الثانية فهي التي أقيمت بعد ثورة المكابي في عام ١٦٧ قبل المسيح ضد خلفاء الاسكندر ، كما سبق له ان قال في المقدمة التي كتبها عام ١٩٥٤ لكتاب « تاريخ الهاغانا » الذي أصدرته المنظمة الصهيونية العالمية : « وفي الوقت الحالي نتحدث عن الاستيطان ، وعن الاستيطان وحده . انه هدفنا في المدى القصير ، لكن من الواضح ان انكلترا تنتمي للانكلز ، ومصر للمصريين ، واليهودية لليهود ، وليس في بلادنا مكان الا لليهود . اننا سنقول للعرب : « ابتعدوا » ، فلا لم يوافقوا ، اذا قاوموا ، فسنبعدهم بالقوة » .

لقد ظلت هذه الفكرة الموجهة لهم الادعاءات الافليمية للقادة الاسرائيليين . وفي آب عام ١٩٦٧ أعلن الجنرال موسى دايان : « اذا كنا نمتلك الكتاب المقدس ، واذا كنا نمسح أنفسنا شعب الكتاب المقدس ، فان علينا بالمثل ان نمتلك ارض الكتاب المقدس ، ارض القضاة والآباء ، ارض اورشليم وحبرون وأريحا وغيرها ، وأنا لا أعرض هنا برنامجاً سياسياً ، وانما أعرض أمراً أكثر أهمية ، أعرض الوسائل لتحقيق حلم الآباء . وعلى الدول الأجنبية أن تفهم انه بالنسبة لاسرائيل ، بغض النظر عن الأهمية الاستراتيجية ، تقع سيناء ومرفعات الجولان ومضيق تيران وجبال غرب الاردن في قلب التاريخ اليهودي » .

ويكافح مناحيم بييجن قائد اليمين الاسرائيلي من أجل ما يسميه « اسرائيل الكبرى » التي لا بد أن تضم كل المنطقة التي كان يسيطر عليها الملك داود والملك سليمان قبل ثلاثة آلاف عام .

ما هي الحجج التي تعد أساس هذه الايديولوجية الصهيونية ؟

١ - اولا حجة دينية :

هي حجة العهد الذي قطع يهوه مع الشعب اليهودي حين جعله « الشعب المختار » والنسب الذي يستند اليه الصهاينة هو النسب الذي يمنع كل ارض كنعان لابراهيم « وأعطى لك ولنسلك من بعدك ارض غربتك كل ارض كنعان ... » ( سفر التكوين ، الاصحاح السابع عشر الآية ٨ ) . ويكشف هذا التفسير للكتاب المقدس القائم على عزل النسب عن مجموع نصوص الكتاب المقدس ، وعن الإطار التاريخي ، عن تصور قبلي للدين . فالواقع ان العهد قد صيغ في أيام ابراهيم وفق نموذج العلاقات الاجتماعية في الشرق الاوسط كله في ذلك الحين : اذا كانت

ان كاتب « الرسالة الى العبرانيين » ( الاصحاح الثامن والتاسع ) يقطع كل صلة بزعام تميز شعب مختار ، نالرب هو رب كل الشعوب .

ويستلهم العران - وهو بدوره وريث هفالييد ابراهيم - نفس النزعة العالمية العامة ونفس النظرة الى الداخل الروحي في تفسيره للهد ، انه عهد مفتوح امام كل من يعملون وفق الروح الالهي : « واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات هاتهن قال اني جاعلك للناس اسما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين » ( سورة البقرة - الآية ١٢٤ ) . فلسنا اذن امام عهد بحكم الدم وانما امام ميثاق للفاب . يقول الرسول : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

وكانت بربرية هتلر هي التي جعلت من اخنان رمزا لجنس ، ودبرت المذابح لليهود .

وباسم العنصرية عرفت فوانين نورمبرغ النازية اليهودي بأنه من ولد لام يهودية . ويقول حايم كوهين القاضي بالحكمة العليا الاسرائيلية : « ومن سخرية القدر ان نفس الافكار البيولوجية والعنصرية التي روج لها النازيون ، والتي ألهمت فوانين نورمبرغ الشائنة هي التي بعد اساس التعريف الرسمي لليهودية داخل دوله اسرائيل » ( أنظر جوزيف بادي : « الفونين الاساسية لدولة اسرائيل » - نيويورك ١٩٦٠ - ص ١٥٦ ) .

وباسم هذا التمييز العنصري الذي ينقل الانتماء اليهودي عن طريق الام لم يتزوج نساء عربيات سوى ثلاثة من اليهود منذ قيام دولة اسرائيل .

وأما زعم استخلاص ثيوقراطية بالية من الكتاب المقدس على طريقة « السياسة المستخلصة من الكتاب المقدس عند بوسيه » لتبرير « الحق المقدس » للملوك ، فان على القادة الاسرائيليين ان يذكروا انه وجد في كل أوروبا يهود وهفوا ضد « الحق المقدس » ليضعوا البيان العالمي لحقوق الانسان ، وان من الزيف الاجرامي في القرن العشرين ان نفاق على انفسنا زاعمين ان نمة « حقا مقدسا » لشعب مختار .

٢ - وكما يضمن الاساس الديني للصهيونية نصورا قريبا للدين فان المطالبة « بالحق التاريخي » لليهود في فلسطين تستند الى تسمية وتزييف تاريخيين . فالبلاد التي يسميها الكتاب المقدس ارض كنعان ، والتي سميت بفلسطين منذ أيام الرومان ( أي ارض الفلسطينيين ) تقع على « الهلال الخصيب » الذي يمتد من الفرات الى النيل ، وهو موقع تاريخي عبرته وامتزجت فيه كثير من الشعوب . وحين جاءت قبائل ابراهيم في القرن الثاني عشر قبل الميلاد مسن اراضي أور فيما بين النهرين لتستقر في ارض كنعان فانها لم تات الى صحراء مهجورة ، ولم تكن اول من يقطن هذه الارض ، فقد وصل اليها الاموريون قبلهم بشماتة عام ، وجاءها الاراميون في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، وبعدهم بقليل نزل الفلسطينيون في المنطقة الساحلية ، ولم يطرد داود الفلسطينيين والاراميين - نحو الف عام قبل الميلاد - الا عن طريق الحرب .

ثم اصيحت البلاد بعد ذلك اقليما اشوريا في القرن الثامن قبل الميلاد ، وغدت فيما بعد اقليما رومانيا ثم فارسيا ثم عثمانيا قبل ان تنتقل الى ايدي المستعمرين الانكليز .

فأي تلاعب تاريخي هذا الذي لا يذكر من هذا التاريخ كله سوى بضعة أحداث : هجرة ابراهيم من بين كل الهجرات ، ومملكة داود من بين كل الممالك ، وثورة المكابيين من بين كل الثورات .

ان هذه النزعة الاستبعادية عارية من الاساس تماما ، كما لو زعم البريتون - وهم احفاد السلت الذين أقاموا في الارض التي اصيحت اليوم فرنسا في العصر الذي هاجر فيه ابراهيم الى ارض كنعان - ان فرنسا ملك لهم بحكم الحق التاريخي .

غير ان هذه الاسطورة التاريخية هي التي تفرس هي اذهان الشباب الاسرائيلي في المدارس ، والاحداث التاريخية ذات الاهمية في كتب التاريخ المدرسية الاسرائيلية هي تلك التي تخص اليهود وحدهم . ووفق ما يتلناه هؤلاء الاطفال من تعليم لم يحدث شيء في فلسطين منذ ثورة بركوخبا في القرن الاول ، وندمير الهيكسل حتى هرتزل ومولد الصهيونية : لا مقدم الاسلام ، ولا الحملات الصليبية ، ولا غزو المغول ، ولا معارك العرب ضد السيطرة العثمانية .

ان انكار الوجود على كل ما ليس يهوديا في اسرائيل سمة مسن سمات الروح الصهيونية . انه مبنيها الاساسي

ان هرتزل لا يشير اشارة واحدة الى العرب في كتابه « الدولة اليهودية » ( ١٨٩٦ ) الذي كان الاساس الذي قامت عليه الصهيونية . وعد أكد هرتزل في عام ١٨٩٥ ان المشروع الصهيوني واضح للغاية وسهل لتحقيق : « اعطاء ارض بلا شعب لشعب بلا ارض » وفي ذلك الوقت كان يعيش في فلسطين نصف مليون عربي .

وحين سئل ابنتاين وايزمان ( احد القادة الرئيسيين للمنظمة الصهيونية العالمية ) : « وماذا سيحدث للعرب اذا اعطيت فلسطين لليهود ؟ » اجاب وايزمن : « أي عرب ؟ انهم قليلو الشأن » .

وينبغي ان نذكر انه كان هناك في عام ١٨٨٢ ، حين بدأت الهجرة الصهيونية ، ٢٥ ألف يهودي في فلسطين بين نصف مليون من السكان . وفي ١٨ تموز ١٩٤٨ رد بن غوريون على الكونت برنادوت وسيط الامم المتحدة حين طلب منه ان يترك العرب يهودون الى ديارهم فقال : « سنفل كل شيء حتى لا يعودوا أبدا » .

٣ - ومن هذا التصور القبلي للدين ، وهذه الاسطورة التاريخية تتبع الروح الاستيطانية للصهيونية ، التي تسم بنفي حقوق الفير ، وثقافة الفير ، ووجود الفير .

وكما قال بوري أفنييري النائب الاسرائيلي السابق : « يوجد في اسرائيل نظام استعماري فيما يتعلق بالسكان العرب » ( هاعولام هازيه ٧ آب ١٩٥٤ ) .

وهذه الاستيطانية تلهم الصهيونية ، في نظريتها وفي ممارستها ، في سياستها الخارجية وفي سياستها الداخلية .

١ - ففي النظرية الصهيونية ، ومنذ البدء ، أي في كتاب هرتزل « الدولة اليهودية » الذي أسس المنهج تقرا « ان هذه الدولة اليهودية في فلسطين ستشكل جزءا من متراس أوروبا ضد آسيا » . ويضيف : « ستكون موقعا اماميا للحضارة ضد البربرية » . وتلك ذريعة يتنزع بها كل الغامرين الاستعماريين .

ومن الواضح ان هذه الفكرة تفري الاستعماريين من كل نوع ، ومن هنا فانهم لا يكفون عن التضامن مع دولة اسرائيل ، ومنذ عام ١٩٣٥ طرح اللورد ويجوود فكرة اقامة الدولة اليهودية باعتبارها الدومنيون السابع في الكومنولث البريطاني . ويقبول كويستار : « وسيصبح كومنولث المهاجرين هذا رأس جسر للديمقراطية الاوروبية الى لبنان » ومن الممكن « في فلسطين - ووسط سكان من الاوروبيين المتعاطفين - اقامة قاعدة راسخة تتحكم في منافذ الشرق وقناة السويس » .

وكانت هذه هي الروح التي صدر عنها « وعد بلفور » في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ : « ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى انشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين . وسوف تبدل ما في رسمها لتيسر تحقيق هذا الهدف » . وكانت اكلترا في ذلك الحين اكبر دولة استعمارية في العالم .

ويحدد كويستار بشكل رائع هذا الاصل الاستعماري لفكرة انشاء دولة يهودية في فلسطين فيقول : « انه وثيقة تعد فيه امة رسميا امة اخرى ببلاد امة ثالثة » . وهكذا في الواقع يعمل الاستعماريون في كل

مكان وينصرفون في الشعوب دون استثمارها .

ب - ان التحالف مع الامبرياليين والاسعماريين - في مجال السياسة الخارجية - سمة دائمة لتصهونية ولقادة اسرائيل .

فمنذ عام ١٨٩٠ كان تيودور هرتزل - ابو الصهيونية - يسعى للحصول على حماية بسمارك . وفي عام ١٨٩٨ اقترح على غليوم الثالث ( وكان معاديا للسامية ) اقامة دولة يهودية سنكون « موقعا سعما للمصالح والحضارة الجرمانية » .

لقد بحث الصهاينة دائما عن الحالف مع دولة اجنبيه تعارض مصالحها مع مصالح الشعوب العربية . ففي انشرينات اسند اليهود على الانكليز ضد العرب في كل ما نجم عن الهجرة من صدامات بين الطائفتين . وعلى العكس في عام ١٩٢٠ - وكانت الحرب دائرة ضد هتلر - اقام ابراهام شيرين منظمة ارغون السرية ضد الانكليز .

وبعد الحرب اصبحت الولايات المتحدة هي الامبريالية الاوى ، ووجدت فيها الصهيونية حليفها الرئيسي ، اذ كان ترومان من انصار الهجرة اليهودية فير الحدودة الى فلسطين .

وفي عام ١٩٥٦ ، حين عجزت الحكومة الفرنسية عن ادراك ان الحركة الوطنية الجزائرية هي تعبير عن ارادة عميقة لدى الشعب الجزائري وتمسوت انها من تدبير القاهرة ، ارتبطت اسرائيل بهسا وبالانكليز لتنظيم حملة ضد فئاة السويس .

وقادت نفس الروح الاستعمارية دولة اسرائيل الى التصوت في الامم المتحدة ضد استقلال الشعوب الافريقية ، والارتباط بالبرتغال الفاشمة ضد انغولا وموزامبيق ، وبصنائع فيتنام الجنوبية ضد الشعب الفيتنامي ، وباللؤل العنصرية في جنوب افريقيا .

٤ - ونفس الروح الاستعمارية تتحكم في السياسة الداخية لدولة اسرائيل ، فثمة تمييز ، حتى داخل اليهود ، بين اولئك القادمين من أوروبا وأولئك القادمين من الشرق أو من المغرب « السفارديم » ، وثلثا العمال غير المؤهلين هم من اليهود غير الغربيين ، وبالرغم من انهم يشكلون ٥٠ ٪ من السكان فليس لهم سوى ٢٠ نائبا بين ١٢٠ نائبا يضمهم الكنيست .

غير ان التمييز صارخ تماما تجاه العرب . فحتى قبل حرب ١٩٦٧ لم يكن العرب يشغلون سوى ٢ ٪ من المناصب الادارية ، وكلها من المناصب الثانوية . ولا يوجد عربي واحد في منصب القضاء او في الوزارة . وكان لهم ٧ نواب في الكنيست بين ١٢٠ نائبا . وحتى في القطاع الخاص فان العرب الذين يشكلون الان ١٢ ٪ من السكان لا يمثلون سوى ٤ ٪ في الجامعات او البنوك او المكاتب . ويعمل غالبيتهم عمالا زراعيين او عمالا بناء .

غير ان السياسة الاستعمارية تجاه العرب تتجلى على وجه خاص في الاتجاهات الرئيسية الثلاثة للصهيونية في مجال السياسة الداخية : أرض يهودية ، وعمل يهودي ، وثقافة عبرية .

٥ - فقد بدأ الصهاينة ككل الاستعماريين بالاسنيلاء على الارض اولا عن طريق العنف في عام ١٩٤٨ - اذ ولدت اسرائيل عن طريق الحرب - ثم بأساليب اغتصاب من نفس طراز أساليب الاستعمار .

وعلى سبيل المثال ، نشر الجيش الاسرائيلي الارهاب بنبح فرى باسرها بما فيها من رجال ونساء واطفال كما حدث في دير ياسين ( ليلة ٩ - ١٠ نيسان ١٩٤٧ ) ، وكما حدث في القدس ويافا واللد والرملة التي انصبت عليها النيران ، ولذات مئات العائلات الفلسطينية بالفرار هريا من الموت . واصدر القادة الاسرائيليون عندئذ « مرسوم الطوارئ بشأن ملكية الفانيين » في ١٩٤٨ ( وقد اصبح هذا « المرسوم » قانونا في عام ١٩٥٠ ) واختير كل الفلسطينيين الذين غادروا ديارهم قبل اول آب ١٩٤٨ من « الفانيين » . وعلى هذا النحو صودر ثلثا الاراضي الملوكة للعرب ( ٧٠ الف هكتار من ١١٠ آلاف هكتار ) . وعندما

صدر في عام ١٩٥٢ قانون الملكية المغاربة حددت التوزيعات على اساس قيمة الارض في عام ١٩٥٠ ، ولكن الليرة الاسرائيلية كانت قد عرضت لتخفيض قيمتها خمس مرات خلال تلك الفترة .

ومن ناحية اخرى كانت قد بدأت مع الهجرة اليهودية ، ونفس الاسلوب الاستعماري السافر ، عمليات شراء الاراضي من المسالك الاقطاعيين ( الافندية ) غير الميعمين ، بحيث طرد الفلاحون الفقراء من الارض التي كانوا يفلحونها نتيجة الترتيبات التي تمت من وراء ظهورهم بين سادتهم القدامى والقادمين الجدد . ولم يعد امامهم ، بعد ان جردوا من ارضهم ، سوى الفرار .

وكثيرا ما يتندر الصهاينة بان الاراضي على هذا النحو كانت بورا او لا تفلح بعناية ، وكانهم جاءوا الى صحراء جرداء . وهم بهذا يتجاهلون ان العرب كانوا يعيشون في وضع استعماري : كانت البلاد الاستعمارية الغربية ( فرنسا وانكلترا ) تنزع ثرواتهم ، وكانوا ، سان كل الشعوب المستعمرة ، يروحون تحت الامية . على حين تان اليهود الغربيون القادمون قد لطفوا ثقافة نمائل ثقافة المستعمرين . وفيما يتعلق بمعدات الزراعة ، كانت الاموال تتدفق عليهم من أوروبا واميركا ، مما اتاح لهم استخدام تقنيات زراعية لا يمكن ان تقارن بعسل بتقنيات الفلاحين الذين فرض عليهم النظام الاستعماري العفر والبؤس . فخلال الفترة بين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧١ بلقت الاموال التي ارسلها يهود الشتات الى اسرائيل مليارا و ٢٠٠ مليون دولار .

وعندما أخذت دولة اسرائيل مكان المستعمرين القدامى استخدمت نفس الوسائل : تانساعات الزراعية في مجال الري كانت توزع بطريقة تتطوي على التفرقة في المعاملة وعلى محاباة دائمة للمزارعين اليهود : فخلال الفترة بين عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٩ ، زادت مساحته الاراضي المروية في القطاع اليهودي من ٢٩ ألف الى ١٦٤ ألف هكتار ، بينما زادت في القطاع العربي من ٨٠٠ الى ٤١٠٠ هكتار . وهكذا ظل النظام الاستعماري قائما بل اصبح أشد وطأة . ويعترف الدكتور روزنفيلد في كتابه « العمال العرب المهاجرون » الذي نشرته الجامعة العبرية بالقدس عام ١٩٧٠ ، بان الزراعة العربية كانت احسن حالا في ظل الانتداب البريطاني منها اليوم .

ب - ولم يكن شعار « العمل اليهودي » اقسل فتكا من شعار « الارض اليهودية » الذي سيفه : كانت الصهيونية حريصة من البداية على عدم توفير العمل الا لليهود . فقد ظلت النقابات بالقه القسوة المنضوية في « الاتحاد العام للعمال العبريين في ارض اسرائيل » ( الهستدروت ) ترفض طويلا قبول العمال العرب في صفوفها . وحين ألفت في عام ١٩٦٦ كلمة « عبري » من اسم النقابات أعلن بن غوريون احتجاجه على ذلك . وينطبق نفس الشيء على الحزب الحاكم في اسرائيل ، فهذا الحزب « العمالي » كما يزعمون يعلن رسميا وبصراحة انه لا يقبل في صفوفه سوى اليهود ويرفض الاعيار ( جوييم ) .

ويؤكد القادة الاسرائيليون ان ثمة انخفاضا قد حدث في البطالة بين العرب الفلسطينيين منذ عام ١٩٦٧ . وصحيح ان ٥٠ الف عربي يعملون الان في المنشآت الاسرائيلية بعد ان تعرضوا لاقضاء طويل عن العمل ، ولكن ظروف عملهم ما زالت هي نفس الظروف التي كان يعمل فيها كل الخاصمين للاستعمار : فعند تساوي المؤهلات يتراوح الفارق بين أجر العامل اليهودي والعربي بين ٣٠ و ٥٠ بالمائة .

كما تتجلى التفرقة في سياسة الاسكان ايضا ، فالدكتور اسرائيل شاحك رئيس الرابطة الاسرائيلية والاسناذ بالجامعة العبرية بالقدس يخبرنا في كتابه « الضميرة في دولة اسرائيل » ( ص ٥٧ ) ان في اسرائيل مدنا كاملة ( الكرمل ، الناصرة ، ايليت ، هانزور ، ارد ، ميتزب - رامان وغيرها ) يمنع فيها رسميا سكني غير اليهود . ج - وتعود نفس الروح الاستعمارية على الصعيد الثقافي . ولن نستطيع تعريف هذه الروح بأفضل مما صنعه أوري أوريساني

مستشار رئيس الوزراء الاسرائيلي للشؤون العربية حين قال : « لا ريب ان من الافضل الا يكون هناك ضد عرب . ولكن هناك اشياء لا تتوقف علينا ولا نستطيع تجنبها وينبغي علينا أن نبحث عن طريقة لتقليل الاضرار » .

ان الحضارة العربية و تاريخها يتعرضان لتجاهل كامل على نحو ما كان يحدث في ظل الاستعمار البريطاني أو الفرنسي . ومن الامور ذات الدلالة ان ٤ بالمائة فقط من الطلاب المتقدمين لامتحانات البكالوريا في اسرائيل - وكل جيرانها من العرب - يدرسون اللغة العربية كلفة ثانية .

انهم يريدون أن يمحووا من اذهان الفلسطينيين أي ذكرى عن ثقافتهم وتاريخهم . فالطلاب العرب يجبرون على دراسة التاريخ اليهودي بأكثر مما يدرسون تاريخهم هم : فالوقت المخصص لدراسة الكتاب المقدس يبلغ ستة أمثال المخصص لدراسة القرآن .

ان مجمل السياسة الاستعمارية العنصرية القائمة على مبادئ الارض العبرية والعمل العبري والثقافة العبرية ، قد عرفه الجنرال هوشي دايان تعريفا رائعا في عام ١٩٦٧ . فعين سئل عن مقسدة اسرائيل على استيعاب السكان العرب في حالة ضم الاراضي المحتلة الى اسرائيل ، أجاب : « اننا قادرون على ذلك من الناحية الاقتصادية ، ولكنني أعتقد أن هذا لن يتمشى مع خططنا المقبلة . ذلك انه لن يتمخض عن دولة يهودية بل عن دولة مزدوجة القومية ، دولة عربية - يهودية . ونحن نسمى الى دولة يهودية » . وهذا نصريح لا تنقصه ميزة الوضوح البالغ .

والواقع ان هذا يمثل الفيد التوحيد على الاطماع الاقليمية للزعماة اليهود . واذا بلغ معدل المواليد ٢٤٢ في المائة بين اليهود ، و ٤٤ في المائة بين العرب ، فقد أعلنت فولدا مائير انها تواجه كابوسا مزعجا حين تفكر « في المواليد الفلسطينيين » .

ان الصهيونية تكرر بالضرورة دولة اسرائيل للتوسع ، ذلك انه اذا جاء الثلاثة عشر مليون يهودي الذين يعيشون في العالم لدية لنداء الصهاينة ، فان مشكلة « المجال الحيوي » لاسرائيل ستطرح نفسها بحددة . فالبيوتولوجيا الصهيونية تمنع اسرائيل من أن تكون دولة قومية ، كالدول الاخرى . لكن الواقع ان الذين جاءوا لتحقيق « الوعد » لا يمثلون سوى اقلية ضئيلة من بين الذين يقيمون في اسرائيل . فقد كان اثر « قانون العودة » بالغ الضلالة ، وكان هذا من حسن الحظ ، ذلك لان اليهود في كل بلاد العالم قد نهضوا بدور بارز في كل مجالات الثقافة والعلم والفن ، وسيكون من المحزن أن تحقق الصهيونية الهدف الذي حدده مناهضو السامية لانفسهم ، الا وهو انتزاع اليهود من اوطانهم لوضعهم في غيتو عالمي . واليهود الفرنسيون مثل بالغ الدلالة في هذا الصدد ، فبعد توقيع اتفاقيات ايفيان في عام ١٩٦٢ وتحرير الجزائر ، غادر الجزائر ١٢٠ ألف يهودي ، لم يذهب منهم الى اسرائيل سوى ٢٠ ألفا بينما ذهب الى فرنسا ١١٠ آلاف يهودي . ولم تكن هذه الهجرة نتيجة لاضطهاد حماد للسامية ، لاننا نجد نفس النسبة بين المستوطنين الفرنسيين غير اليهود الذين تركوا الجزائر ، ولم تكن مناهضة السامية سبب هذه الهجرة ، بل كان سببها الاستعمار الفرنسي السابق للجزائر ، وقد عرف اليهود الفرنسيون نفس المصير الذي عرفه الفرنسيون الآخرون في الجزائر .

بالاختصار ، فان المهاجرين اليهود الى اسرائيل يجيئون كلهم تقريبا هربا من الاضطهاد المناهض للسامية .

وفي عام ١٨٨٠ بلغ عدد اليهود في فلسطين ٢٥ ألفا من مجموع سكانها البالغ عددهم ٥٠٠ ألف نسمة .

وابتداء من عام ١٨٨٢ بدأت الهجرة الواسعة النطاق بعد المديح

الكبرى ضد اليهود في روسيا القيصرية .

وهكذا وصل ٥٠ ألف يهودي الى فلسطين خلال الفترة من عام ١٨٨٢ الى عام ١٩١٧ . ثم جاء اليها بعد ذلك - خلال فترته ما بين الحربين - المهاجرون البولنديون ومهاجرو المغرب فرارا من الاضطهاد .

ولكن الكتلة الاكبر جاءت من المانيا بسبب السياسة البشممة المناهضة للسامية التي انتهجها هتلر : فوصل على هذا النحو قرابة ٤٠٠ ألف يهودي الى فلسطين قبل عام ١٩٤٥ .

وفي عام ١٩٤٧ ، أي في عشية انشاء دولة اسرائيل ، كان هناك ٦٠٠ ألف يهودي في فلسطين من مجموع سكانها البالغ مليوناً و ٢٥٠ ألف نسمة .

وبدأت عندئذ عملية منظمة لنزع الفلسطينيين عن ارضهم . فقبل حرب عام ١٩٤٨ كان هناك ٦٥٠ ألف عربي يعيشون في الاراضي التي اقيمت عليها فيما بعد دولة اسرائيل . وفي عام ١٩٤٩ كان نل ما بقي منهم هو ١٦٠ ألفا . وبسبب ارتفاع معدل المواليد أصبح عددهم ٤٥٠ ألفا في نهاية عام ١٩٧٠ . وقد كشفت الرابطة الاسرائيلية تحقوق الانسان ان اكثر من ٢٠٠ ألف بيت عربي قد نسف في اسرائيل والصفة الغربية خلال الفترة بين ١١ يونيو ١٩٦٧ الى ١٥ نوفمبر عام ١٩٦٩ .

معنى هذا ان الصهيونية تفرض على الفلسطينيين نفس المصير الاليم الذي تعرض له ضحايا المناهج الاجرامية ضد اليهود . ويهمني أن أقول بوضوح ان العمل يقتضي ان يكون للمضطهدين - وهو وصف ما ينطبق على اليهود في الماضي وبخاصة في روسيا وبولندا و ألمانيا - ملاذ ووطن .

ولكن لماذا ينبغي على الشعب الفلسطيني أن يتدبر عن جيرانه هتلر والقيصرة الروس ، وجرائم العنصرية ومعاداة السامية في العالم كله ، وهي جرائم لا مسؤولية فيها على الاطلاق للشعب الفلسطيني ؟

لقد كان تيودور هرتزل مؤسس الصهيونية يتصور هو نفسه عدة حلول ممكنة ( وهي جميعا مستمدة من نفس الروح الاستعمارية ) : توطين اليهود في الارجننتين أو في كينيا أو في قبرص ، أي في اراض تسيطر عليها الامبريالية .

وفغدة الحرب العالمية الثانية ، أي بعد ان ذبح النازيون بوحشية ستة ملايين يهودي ، كان من الطبيعي أن تقدم جمهورية ألمانيا الاتحادية أحد اقاليمها الى اليهود كملاذ لهم على سبيل التعويض .

ان مصيبة دولة اسرائيل ، تمثل في انها خلقت بأيدي الدول الاستعمارية الكبرى وفقا لمبادئ الاستعمار : فعلى حين كان اليهود في عام ١٩٤٧ يملكون حوالي ٦ بالمائة من الارض ، جاء مشروع التقسيم الذي وضعته حينذاك الدول الغربية ليعطيهم ٥٤ بالمائة من الارض ، واحتل الصهاينة ٨١ بالمائة في واقع الامر عن طريق العنف والحرب . وهذا الظلم الذي لحق بالفلسطينيين الذين طردوا من اراضيهم ، وشتتوا ، هو أصل كل النزاعات التي نشبت منذ ذلك الحين . وقد تفاقم هذا الظلم في يونيو ١٩٦٧ ، فقد قام الجي الاسرائيلي دون اعلان للحرب بتدمير الطيران المصري ، مقلدا بذلك الطريقة التي استخدمها الفاشيون اليابانيون حين حطموا الاسطول الاميركسي في بيرل هاربور .

ومنذ ذلك الحين لم يحترم القادة الصهاينة قط قرارات مجلس الامن او النداءات التي وجهها اليهم ، وواصلوا احتلال الاراضي الفلسطينية التي استولوا عليها بعد « حرب الايام الستة » .

\*\*\*

ما هي اذن الحلول الممكنة لهذا النزاع الدائم الذي يعد اثرا

اما اذا وعى الشعب الاسرائيلي اخطار الايديولوجية الاستعمارية للصهيونية ، فانه يستطيع أن يقيم مجتمعا لن يكون عندئذ ثيوقراطية انقضى عهدا بل سيكون مجتمعا علمانيا متسامحا ، وسيتاح له بوجه خاص الفرصة لكي يندمج باخلاص في مجموع الشرق الاوسط بدلا من أن يكون جيبا غريبا معزولا .

صحيح أنه يوجد عقبات أخرى امام اقرار سلام دائم يقوم على حق تقرير المصير في فلسطين ، والنظام الملكي الهاشمي الحالي في الاردن هو الذي يشبه الثيوقراطية الاسرائيلية ، ويضع يده على أرض فلسطينية ، ويتواطأ مع اسرائيل والولايات المتحدة في ذبح الفلسطينيين في الاردن خلال « ايلول الاسود » عام ١٩٧٠ .

وليست المشكلة الفلسطينية مشكلة حدود ، ولا هي مشكلة جنس ، ولا مشكلة دين ، انها ليست مشكلة « حقوق تاريخية » ، فليس لاحد في العالم « حق تاريخي » مزوم ممتاز يقوم على أسطورة ، سواء كانت « عبد الرجل الابيض » « برسائه المدنية » المزعومة التي تقضى بها ريتشارد كيلنج كداعية للاستعمار الانكليزي ، ام كانت أسطورة « الجنس الآري » كجنس مختار التي استخدمها هتلر لتبرير مزاعمه عن الفراغ الحيوي ، أو الايديولوجية الصهيونية المهلكة للفلسطينيين والقاضية على الاسرائيليين .

ان المشكلة الفلسطينية مشكلة سياسية واجتماعية . ومفتاحها هو الاعتراف للجميع بحق تقرير المصير . ونظرية « الحقوق التاريخية » ستقود حتما الى اعادة تشكيل خريطة العالم بقتابل المدافع .

وينبغي لنا أن نتأمل مثال افريقيا . فلا شك ان الحدود الراهنة لغالبية الدول الافريقية هي من تركة الاستعمارين ، الذين قطعوا اوصال افريقيا بشكل تسفي في مؤتمر برلين عام ١٨٨٥ وفق مصالحهم وحدها . وبعد الاستقلال توفر لرؤساء الدول الافريقية من الحكمة ما دفعهم الى عدم تغيير هذه الحدود . ولا شك ان افريقيا كانت ستغرق في النيران لو انهم ارادوا - باسم « الحقوق التاريخية » - بمت امبراطورية الماندينج مثلا او امبراطورية سنغاي او سيادة البوهل . وليست هذه الحكومة سوى المرحلة الاولى الى أن تتوفر وحدة افريقية راسخة حقا ، لا « صلي أساس الحقوق التاريخية » اي على أساس الماضي ، وانما على أساس اشكال التعاون بين الافريقيين التي تتماشى مع المطالب الجديدة للشعوب ، اي على أساس المستقبل .

وفي وجه كل اشكال الاستعباد المنصري أو الديني أو الحضاري التي تتخفى بستار « الحقوق التاريخية » ليس ثمة من حل الا من طريق الحرص الشامل على النظر الى الانسان الآخر . ان الانسان الذي يختلف عني ، كجزء من ذاتي ، هو وحده الذي يمكن ان يجعل مني انسانا كاملا .

فال ماركس : « ان شعبا يقهر غيره لا يمكن ان يكون شعبا حرا » .

وقد أكد ياسر عرفات ان الفلسطينيين لا يستلهمون روح المنصرية ولا الثار ، وانما يقودهم الحرص على وضع حد للانفلاق ، وصلى ان يكسبوا للجميع الحق في تقرير المصير . وعن هذا الطريق وحده يمكن لفلسطين - كما لغيرها من أنحاء العالم - ان تبني مستقبلا انساني الالامح .

## روحيه غارودي

لقد عرض ياسر عرفات المشكلة بوضوح في الامم المتحدة حين تحدث في ١٢ نوفمبر ١٩٧٤ عن موقف منظمة التحرير الفلسطينية فقال : « ان ثورتنا لا تنطلق من مواقف عنصرية او دينية . فهي ليست موجهة ضد الانسان اليهودي بوصفه يهوديا ، بل ضد الصهيونية العنصرية والعنوان . ونحن نناضل حتى يستطيع اليهودي والمسيحي والمسلم ان يعيشوا معا على قدم المساواة دون أي تمييز عنصري أو ديني . ونحن لا نفرق بين اليهودية والمسيحية . فنحن نعارض الصهيونية الاستعمارية ولكننا نحرم الدين اليهودي لانه جزء من ثرائنا » .

ان المشكلة الفلسطينية لا يمكن أن تحل الا بمثل هذه الروح ، اي بوضع حد لكل المناورات الخارجية للامبريالية ، وبالاعتراف بحق الجميع في تقرير المصير وفي العودة الى أراضيهم . وهذه العودة الى الأرض لا يطالب بها الفلسطينيون باسم « حقوق تاريخية » مزعومة يعود تاريخها الى آلاف مضت من السنين ، وانما باسم العدالة الراهنة لا اكثر ، ومن أجل حقهم في العمل على الأرض التي انتزعت منهم وحقهم في الا يكونوا غرباء في وطنهم .

وليس هناك من شك في ان الطريق سيكون طويلا ، وانه لا بد من استعباد الفلسطينيين أو بتدمير اسرائيل .

فكما يقول ياسر عرفات : « لقد عرف شعبنا على امتداد سنوات طويلة ويلات الحرب والدمار والتشريد والطرود والارهاب ... ولكن هذا كله لم يجعلنا عنصريين . ولهذا السبب فاننا نشعر بالام للفرقة التي عانى منها اليهود بسبب معتقداتهم » . وعلى هذه القاعدة يمكن أن تنشأ - كما تقترح منظمة التحرير الفلسطينية منذ عام ١٩٦٧ - دولة ديمقراطية وعلمانية يعيش فيها اليهود والعرب كمواطنين متساوين في الحقوق والواجبات .

ولكي يصبح تقرير المصير ممكنا ، هنالك عدة شروط مسبقة لا بد من توفيرها : ينبغي أولا أن ينهي القادة الاسرائيليون احتلالهم للأراضي التي استولوا عليها في عام ١٩٦٧ ، وهو الامر الذي لم تكف الامم المتحدة عن المطالبة به .

ولا يمكن بعد ذلك أن يكون هناك حل سلمي للمشكلة طالما استمر القادة الاسرائيليون في انتهاج سياسة صهيونية تدفعهم الى التوسع وتمنع اسرائيل من أن تكون دولة قومية كالدول الأخرى . ان الصهيونية هي الد أعداء اسرائيل ، فهي اذ تجمل من اسرائيل جيبا غريبا في الشرق الاوسط وتمنعها من الاندماج في مجموع شعوب الشرق الاوسط ، تحكم على اسرائيل بوضع شبيه بوضع الصليبيين المسيحيين منذ ثمانية قرون .

وفي سبتمبر ١٩٦٧ شبه الجنرال اسحق رابين ، القائد الاعلى للجيش الاسرائيلي ، موقف الصهاينة بموقف الصليبيين . وينبغي ان يتأمل الصهاينة هذه المقارنة .

فالصهاينة يبحثون مشعل الصليبيين عن تبرير ديني ، وهم يرفضون مثلهم الاندماج في السكان المحليين ، ويتمادون فقط على التفوق العسكري . والصهاينة مثل الصليبيين يعتمدون على التدفق المستمر لرؤوس الاموال القادمة من الغرب في صورة تبرعات واسلحة ورسوم حج . لكن الصليبيين انتهوا بفشل تديسين : فبعد حروب استمرت ثمانية اجيال ، واستمرت منذ الاستيلاء على القدس في عام ١٠٩٩ حتى رحيل آخر صليبي من عكا في عام ١٢٩١ ، طرد الصليبيون الى البحر .

ان على الشعب الاسرائيلي ان يتأمل هذه التجربة التاريخية ، وان يدرك ان الصهيونية تقوده الى حالة من الحرب الدائمة على المدى